محمد عطية الإبراشي

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

بُنَيَّ العزيز :

سَأَذْكُرُ لَكَ الآنَ قِصَّةَ صَلاحِ الدِّينِ مَعَ قَلْبِ الأَسَدِ ، وَهِيَ قِصَّةٌ جَميلَةٌ جِدًّا ، تَدُلُّ عَلَى بُطولَةِ صَلاحِ الدِّينِ ، وَشَجاعَتِهِ وَنُبْلِهِ .

ماذَا حَدَثَ بَعْدَ أَنْ دَخَلَ صَلاحُ الدِّينِ بَيْتَ المَقْدِسِ ؟

وَصَلَتِ الأَخْبارُ إِلَى أُورُبَّةَ وَالأُورُبِّيِّينَ أَنَّ صَلاحَ الدِّينِ دَخَلَ بَيْتَ المَقْدِسِ مُنْتَصِرًا ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ ، فَتَأَثَّرُوا وَهاجُوا ، وَاجْتَمَعَ المُلوكُ وَالأُمَراءُ مِنَ الإِفْرِنْجِ ، وَاتَّفَقُوا مَعَ رِجالِ الدِّينِ مِنْهُمْ عَلَى جَمْعِ جُيوشٍ جَديدَةٍ مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ ، لِتَخْليصِ بَيْتِ المَقْدِسِ مِنْ يَدَيْ صَلاحِ الدِّينِ .

وَصَلَتِ الجُيوشُ الصَّلِيبِيَّةُ إِلَى بِلادِ الشَّامِ ، تَحْتَ قِيادَةِ (رِيتْشارْدَ) مَلِكِ الإِنْجليزِ ، المُلَقَّبِ قَلْبَ الأَسَدِ ،

و(فِلِيبَ) مَلِكِ فَرَنْسا وَغَيْرِهِما مِنَ القُوَّادِ وَالمُلوكِ . وَأَرْسَلُوا إلَى صَلاحِ الدِّينِ ، فَذَهَبَ إلَيْهِمْ ، وَمَعَهُ جماعَةٌ مِنْ جُنودِهِ الأَقْوِياءِ ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِمْ فَحَيَّاهُمْ(١) ، وَسَأَلَهُمْ عَمَّا يُرِيدُونَ .

فَقالُوا لَهُ : إنَّنا جِئْناكَ بِجُيوشٍ لا قُدْرَةَ لَكَ عَلَيْها ، فَمِنَ الخَيْرِ لَكَ أَنْ تُخْلِيَ(٢) بَيْتَ المَقْدِسِ فى الحالِ . وَإذا لَمْ تُخْلِها فَلا تَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَكَ .

فَقالَ صَلاحُ الدِّينِ : « إنَّكُمْ تَعْتَزُّونَ بِكَثْرَتِكُمْ ، وَلَكِنَّنا نَعْتَزُّ بِقُوَّةِ إيمانِنَا ، وَصِدْقِ عَزائِمِنا . وَإنَّكُمْ قَوْمٌ تُحِبُّونَ الدُّنْيا ، أَمَّا نَحْنُ فَقَوْمٌ نُحِبُّ الآخِرَةَ ، وَنَعْمَلُ لَها . وَلَنْ يَنْتَصِرَ مَنْ أَحَبَّ الحَياةَ .

وَلَنْ يَنْهَزِمَ مَنْ أَرادَ المَوْتَ .

فَقامَ (رِيتْشارْدُ) وَقالَ : يا صَلاحَ الدِّينِ ، إنَّنِى (رِيتْشارْدُ قَلْبُ الأَسَدِ !) نَحْنُ نَعْتَزُّ بِقُوَّتِنا . ثُمَّ أَتَى

---

(١) قالَ لهُم : السَّلامُ عَلَيكُم .

(٢) تَتْرُكَ .

بِقَضِيبٍ مِنَ الحَدِيدِ ، ثُمَّ رَفَعَ سَيْفَهُ ، وَضَرَبَ بِهِ القَضِيبَ ، فَقَطَعَهُ قِطْعَتَيْنِ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَكانِهِ رافِعًا رَأْسَهُ ، فَخُورًا بِقُوَّتِهِ . فَصَفَّقَ لَهُ الأُورُبِّيُّونَ تَصْفِيقًا طَوِيلًا .

وَلَكِنَّ صَلاحَ الدِّينِ نَظَرَ إِلَى (رِيتْشارْدَ) فى احْتِقارٍ ، ثُمَّ قالَ : « لَيْسَت أُمورُ الحَرْبِ راجِعَةً إِلَى صَلابَةِ السُّيوفِ ، وَقُوَّةِ الضَّرْبِ ، وَإِنَّما مَرْجِعُها إِلَى قُوَّةِ القُلوبِ ، وَقَطْعِ السُّيوفِ ، وَالمَهارَةِ فى الحُروبِ » .

ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْدِيلًا رَقِيقًا ، وَرَماهُ إِلَى أَعْلَى ، ثُمَّ أَخْرَجَ سَيْفَهُ ، وَتَلَقَّفَ بِهِ المِنْدِيلَ ، فَقَطَعَهُ قِطْعَتَيْنِ مُتَساوِيَتَيْنِ ، فَعَجِبَ الحاضِرُونَ ، وَسَكَتُوا جَمِيعًا .

وَمَدَّ صَلاحُ الدِّينِ سَيْفَهُ ، وَرَفَعَ بِطَرَفِهِ قِطْعَتَيِ المِنْدِيلِ مِنَ الأَرْضِ ، وَرَماهُما فى حِجْرِ (رِيتْشارْدَ) ثُمَّ قالَ : « بِمِثْلِ هٰذِهِ السُّيوفِ سَنَلْقاكُمْ غَدًا .. ثُمَّ خَرَجَ مِنْ مَجْلِسِهِمْ .

قامَ (رِيتْشارْدُ) مِنْ مَكانِهِ ، وَحاوَلَ تَقْلِيدَ

صَلاحِ الدِّينِ فِيمَا فَعَلَ بِالمِنْدِيلِ ، فَلَمْ يَنْجَحْ . وَزادَ إعْجابُ المُلوكِ بِصَلاحِ الدِّينِ .

مُحاصَرَةُ عَكَّا :

اِخْتَلَفَ الصَّلِيبِيُّونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ دَخَلُوا أَرْضَ الشَّامِ ، وَجَعَلَ كُلُّ مَلِكٍ يَكِيدُ لِلآخَرِ . وَاشْتَدَّتِ العَدَاوَةُ بَيْنَ مَلِكِ الإنْجليزِ وَمَلِكِ فَرَنْسَا . وَحاصَرَتِ الجُيوشُ الصَّلِيبِيَّةُ عَكَّا مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، وَانْتَشَرَت الأَمْراضُ بَيْنَ الجُنودِ ، وَاشْتَدَّت حَرارَةُ الصَّيْفِ ، فَرَجَعَ الصَّلِيبِيُّونَ إِلَى بِلادِهِمْ . وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا (رِيتْشارْدُ) الَّذِى اسْتَمَرَّ مُحاصِرًا عَكَّا بِجَيْشِهِ .

وَدَافَعَ الأَهْلُونَ عَنِ المَدِينَةِ دِفاعًا مَجيدًا . وَلَمْ يَسْتَطِعْ (رِيتْشارْدُ) دُخولَها إِلَّا بَعْدَ أَنْ قُتِلَ آخِرُ جُنْدِىٍّ مِنَ المُسْلِمينَ المُدافِعينَ عَنْ حُصونِها .

صَلاحُ الدِّينِ يُحَصِّنُ بَيْتَ المَقْدِسِ :

اِسْتَمَرَّ صَلاحُ الدِّينِ فى إعْدادِ الجَيْشِ ، وَتَحْصِينِ بَيْتِ المَقْدِسِ لِمُلاقاةِ الصَّلِيبِيِّينَ فى مَوْقِعَةٍ فاصِلَةٍ .

اِلْتَقَى جَيْشُ (رِيتْشارْدَ) مَعَ جَيْشِ صَلاحِ الدِّينِ وَجْهًا لِوَجْهٍ عِنْدَ بَلْدَةِ (حِطِّينَ) . وَكانَ (رِيتْشارْدُ) يَخْرُجُ لَيْلًا ؛ لِيَطْمَئِنَّ عَلَى راحَةِ قُوَّادِهِ وَجُنودِهِ . وَكانَ مَعَهُ فَتاةٌ عَمِلَتْ عَلَى تَوْفِيرِ أَسْبابِ الرَّاحَةِ لَهُ .

وَكانَتْ تَمْشِي وَرَاءَهُ فى أَىِّ جِهَةٍ يَمْشِي فِيهَا ؛ لِأَنَّها سَمِعَتْ أَنَّ هُناكَ مُؤَامَرَةً تُدَبَّرُ فى السِّرِّ لِقَتْلِهِ . وَلَمَّا أَخْبَرَتْهُ لَمْ يَهْتَمَّ بِقَوْلِها .

وَفى لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيالِى بَحَثَتِ الفَتاةُ عَنْ (رِيتْشارْدَ) فى خَيْمَتِهِ فَلَمْ تَجِدْهُ ، فَخَرَجَتْ تُفَتِّشُ عَنْهُ ، فَتاهَتْ فى الطَّرِيقِ ، وَوَصَلَتْ إِلَى مُعَسْكَرِ المُسْلِمِين ، فَظَنَّها أَحَدُ الْحُرَّاسِ جُنْدِيًّا يَتَجَسَّسُ أَخْبارَهُمْ ، فَرَماها بِسَهْمٍ أَصابَها ، فَوَقَعَتْ عَلَى الأَرْضِ مُلَطَّخَةً بِدِمائِها .

وَصادَفَ أَنْ مَرَّ صَلاحُ الدِّينِ كَعادَتِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ بِتِلْكَ الجِهَةِ ، فَسَمِعَ صَوْتًا مُحْزِنًا ، فَبَحَثَ فَوَجَدَ هٰذِهِ الفَتاةَ تَتَأَلَّمُ مِنْ جُرْحِها . فَحَمَلَها عَلَى يَدَيْهِ ، وَمَشَى بِها حَتَّى وَصَلَ إِلَى أَقْرَبِ خَيْمَةٍ فى المُعَسْكَرِ ، وَطَلَبَ الطَّبِيبَ ،

وَأَوْصاهُ بِها خَيْرًا . فَأَخْرَجَ الطَّبِيبُ السَّهْمَ مِنْ فَخِذِهَا ، وَعَالَجَهـا حَتَّى شُفِيَتْ مِنْ مَرَضِهـا . وَبَقِـيَتْ فى المُعَسْكَرِ .

اِلتَقَى الجَيْشانِ ، وَاقْتَتَلا قِتـالًا طَويـلًا ، وَأُعْجِبَ صَلاحُ الدِّينِ بِمَهارَةِ (رِيتْشارْدَ) الحَرْبِيَّةِ ، مَعَ ما كانَ بَيْنَهُما مِنَ العَداوَةِ .

أَسَرَ المِسْلِمُونَ بَعْضَ الصَّلِيبِيِّينَ ، فَلَمَّا عَرَضوهُمْ عَلى صَلاحِ الدِّينِ فى خَيْمَتِهِ عَرَفَتِ الْفَتاةُ فى الأَسْرَى قائِدًا كانَ يُلازِمُ (رِيتْشارْدَ) ، فَطَلَبَتْ إِلَى صَلاحِ الدِّينِ أَنْ يَسْمَحَ لَها بِالتَّكَلُّمِ مَعَ ذلِكَ القائِدِ الأَسِيرِ . فَلَمَّا سَمَحَ لَها سَأَلَتْهُ عَنْ سَيِّدِهِ ، فَأَخْبَرَهـا بِأَنَّ هُنـاكَ مُؤَامَـرَةً مِنْ أَعْدائِـهِ الفَرَنْسِيِّـينَ وَبَـعْضِ الإنْجليزِ لِقَتْلِـهِ فى هذِهِ اللَّيْلَـةِ . وَلَمْ أَتَمَكَّنْ مِنْ إِخْبارِهِ ؛ لِأَنِّى وَقَعْتُ أَسِيرًا .

تَأَلَّمَتِ الفَتاةُ ، وَأَخَذَتْ تَبْكِـى . فَسَمِعَهـا صَلاحُ الدِّينِ ، فَسَأَلَها عَنْ سَبَبِ بُكائِها ، فَأَخْبَرَتْهُ بِكُلِّ شَىْءٍ .

وَقَدْ كانَ مِنْ عادَةِ (رِيتْشارْدَ) أَنْ يَخْرُجَ كُلَّ لَيْلَةٍ بَعْدَ

انْتِهاءِ القِتالِ ؛ لِيَرَى بِنَفْسِهِ القَتْلَى وَالجَرْحَى مِنْ جُنودِهِ ، وَمَعَهُ بَعْضُ قُوَّادِهِ .

وَفى تِلْكَ اللَّيْلَةِ الَّتِى دَبَّرَ فِيهَا أَعْداؤُهُ المُؤامَرَةَ خَرَجَ وَحْدَهُ . فَرَأَى فى المَيْدانِ قائِدًا مَرْمِيًّا عَلَى وَجْهِهِ ، فَجَلَسَ ، وَأَخَذَ يُقَلِّبُهُ ، فَعَرَفَ أَنَّهُ قائِدٌ فَرَنْسِيٌّ كانَ يُقَرِّبُهُ مِنْ مَجْلِسِهِ ، وَظَنَّهُ مَيِّتًا ، فَتَأَثَّرَ ، وَوَقَفَ حَزِينًا ، ثُمَّ مَشَى .

وَفى الحالِ قامَ ذٰلِكَ القائِدُ الفَرَنْسِيُّ ، وَنَفَخَ فى بُوقٍ صَغيرٍ كانَ مَعَهُ . فَدَهِشَ (رِيتْشارْدُ) حِينَما رَأَى كَثِيرِينَ يَذْهَبُونَ جِهَتَهُ فى الظَّلامِ ، فَتَراجَعَ إِلَى الوَراءِ ، وَلٰكِنَّهُ تَذَكَّرَ سَيْفَهُ ، فَأَخْرَجَهُ ، ثُمَّ صاحَ فى وَجْهِ الخائِنِينَ : مَنْ أَنْتُمْ ؟ فَأَجابَهُ القائِدُ الفَرَنْسِيُّ : نَحْنُ سَنَقْطَعُ اليَوْمَ رَقَبَتَكَ .

فَقالَ (رِيتْشارْدُ) : لَنْ يَكونَ لَكُمْ ذٰلِكَ . إِنَّنِى (رِيتْشارْدُ قَلْبُ الأَسَدِ) . هَلْ فِيكُمْ إِنْجِلِيزِيٌّ ؟

فَأَجابَهُ الفَرَنْسِيُّ : نَعَمْ . فَهَجَمَ عَلَيْهِمْ (رِيتْشارْدُ) ،

وَلكِنَّهُمْ تَكاثَرُوا عَلَيْهِ ، وَأَخَذَتْ قُوَّتُهُ تَضْعُفُ ، فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ سَيُقْتَلُ .

وَفى تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَصَلَ جُنودٌ مِنَ المُسْلِمينَ النُّبَلاءِ الأَبْطالِ ، فَأَبْعَدوا هؤُلاءِ الخَوَنَةَ عَنْ (رِيتْشارْدَ) ، وَضَرَبُوهُمْ بِسُيُوفِهِمْ ، وَقَتَلُوهُمْ جَمِيعًا . ثُمَّ طَلَبُوا إِلَى (رِيتْشارْدَ) أَنْ يَذْهَبَ مَعَهُمْ إِلَى مُعَسْكَرِ سَيِّدِهِمْ صَلاحِ الدِّينِ ، الَّذى أَرْسَلَهُمْ لإِنْقاذِهِ مِنْ أَيْدى أَعْدائِهِ .

ذَهابُ (رِيتْشارْدَ) إِلَى صَلاحِ الدِّينِ :

ذَهَبَ (رِيتْشارْدُ) إِلَى صَلاحِ الدِّينِ ، لِأَنَّهُ كانَ يَعْرِفُ فى صَلاحِ الدِّينِ النُّبْلَ وَالشَّرَفَ وَالبُطولَةَ . وَلِأَنَّهُ اعْتَقَدَ أَنَّ القائِدَ الَّذى يُخَلِّصُ عَدُوَّهُ مِنَ المَوْتِ ـــ لَنْ يُفَكِّرَ فى أَنْ يَأْخُذَهُ أَسيرًا ، بَعْدَ إِنْقاذِهِ مِنْ أَعْدائِهِ .

قابَلَ صَلاحُ الدِّينِ (رِيتْشارْدَ) مُقابَلَةَ الصَّديقِ لِصَديقِهِ ، وَأَكْرَمَهُ كُلَّ الإِكْرامِ . وَبَعْدَ قَليلٍ حَضَرَتِ الفَتاةُ الَّتى كانَتْ تُلازِمُ (رِيتْشارْدَ) ، وَأَخْبَرَهُ صَلاحُ الدِّينِ بِأَنَّها كانَت السَّبَبَ فى تَخْليصِهِ مِنَ المَوْتِ فى هذِهِ

اللَّيْلَةِ .

وَشَكَرَ (رِيتْشارْد) لِصَلاحِ الدِّينِ ما قامَ بِهِ مِنْ إنْقاذِ حَياتِه .

فَقالَ لَهُ صَلاحُ الدِّينِ : لا شُكْرَ عَلَى فِعْلِ الواجِبِ .

وَقَد انْتَهَتِ الحَرْبُ بِانْتِصارِ صَلاحِ الدِّينِ انْتِصارًا تامًّا .

وَعُقِدَتْ بَيْنَهُما مُعاهَدَةٌ كانَ مِنْ شُروطِها وَقْفُ القِتالِ بَيْنَ المُسْلِمينَ وَالصَّلِيبِيِّينَ لِمُدَّةِ ثَلاثِ سَنواتٍ وَثَلاثَةِ أَشْهُرٍ .

رَجَعَ (رِيتْشارْدُ) إِلَى بِلادِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَ المَقْدِسِ ، وَأَرْسَلَ إِلَى صَلاحِ الدِّينِ رِسالَةً يَذْكُرُ لَهُ فِيها أَنَّهُ سَيَرْجِعُ لِلْحَرْبِ بَعْدَ انْتِهاءِ الهُدْنَةِ ، لِيُخَلِّصَ بَيْتَ المَقْدِسِ مِنْ أَيْدى المُسْلِمينَ .

فَأَرْسَلَ لَهُ صَلاحُ الدِّينِ خِطابًا كُلُّهُ رِقَّةٌ وَذَوْقٌ ، بَيَّنَ لَهُ فِيهِ أَنَّهُ إذا لَمْ يَكُنْ هُناكَ مَفَرٌّ مِنْ هَزِيمَتِهِ ، فَإِنَّهُ يُفَضِّلُ أَنْ يَنْهَزِمَ لِرِيتْشارْدَ لا لِمَلِكٍ آخَرَ غَيْرِهِ .

وَبَعْدَ أَنْ انْتَصَرَ صَلاحُ الدِّينِ ، وَخَلَّصَ بَيْتَ المَقْدِسِ

مِنَ الصَّلِيبِيِّينَ ، رَجَعَ إِلَى القاهِرَةِ .

صَلاحُ الدِّينِ بِالقاهِرَةِ :

رَجَعَ إِلَى القاهِرَةِ ، وَنَظَّمَ حُكومَتَهُ ، وَبَنَى الحُصُونَ وَالمَساجِدَ ، وَبَنَى قَلْعَةً عَظِيمَةً فَوْقَ جَبَلِ المُقَطَّمِ . وَبَنَى حَوْلَ القاهِرَةِ سُورًا عَظِيمًا مِنَ الحَجَرِ يَحْمِيهَا مِنْ شَرِّ الأَعْداءِ .

وَأَخَذَ يَنْشُرُ التَّعْلِيمَ بَيْنَ المِصْرِيِّينَ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَنْشَأَ فى مِصْرَ المَدارِسَ الشَّعْبِيَّةَ الَّتِى يَتَعَلَّمُ فِيها أَبْناءُ الفُقَراءِ وَالأَغْنِياءِ مَعًا . فَأَحَبَّهُ الشَّعْبُ لِعَدْلِهِ وَنُبْلِهِ ، وَحِلْمِهِ ، وَشَجاعَتِهِ وَكَرَمِهِ . وَمَدَحَهُ الشُّعَراءُ بِقَصائِدِهِمْ .

وَقَد اتَّسَعَتْ مَمْلَكَةُ صَلاحِ الدِّينِ ، فَكانَ مِنْها مِصْرُ ، وَالحَرَمانِ الشَّرِيفانِ ، وَجُزْءٌ كَبِيرٌ مِنْ بِلادِ الشَّامِ .

وَكَفاهُ شَرَفًا أَنْ يُوَحِّدَ بَيْنَ العَرَبِ ، وَأَنْ يُحْيِيَ القَوْمِيَّةَ العَرَبِيَّةَ .

وَلَمْ يَعِشْ طَوِيلًا بَعْدَ أَنِ انْتَصَرَ عَلَى الإِفْرِنْجِ فى سُورِيَّةَ .

مَوْتُهُ :

أَصابَهُ بَرْدٌ شَديدٌ . وَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِ المَرَضُ ، وَأَحَسَّ أَنَّهُ سَيَمُوتُ ، تنازَلَ عَنْ كُلِّ ما كانَ يَمْلِكُهُ لِلأَعْمالِ الخَيْرِيَّةِ ، وَبِناءِ المَساجِدِ وَالمَدارِسِ .

وَفى يَوْمِ الأَرْبِعاءِ ٢٧ مِنْ صَفَرَ سَنَةَ ٥٨٩ هـ وَ٤ مِنْ مارِس سَنَةَ ١١٩٣ م . ماتَ صَلاحُ الدِّينِ وَعُمْرُهُ ٥٧ سَنَةً . وَلَمَّا ماتَ لَمْ يَجِدوا فى خِزانَتِهِ الكَبيرَةِ إِلَّا دِينارًا وَنِصْفَ دِينارٍ ؛ لِأَنَّهُ كانَ يُنْفِقُ كُلَّ أَمْوالِهِ فى مُساعَدَةِ الفُقَراءِ وَالمُحْتاجِينَ .